ثورة عبد الناصر

العالم الذي تركه عبد الناصر ليس هو العالم نفسه الذي جاء اليه . وهكذا البطل . انه ينتزع المستقبل جنينا من رحم التاريخ : يرسم قسماته بأفكاره ، ويصوغ روحه بمبادئه ، يدفعه الى الامام بمواقفه فينمو على هدى خطواته فلا يعود العالم الذي جاءه البطل هو العالم نفسه الذي يتركه .

ان عبد الناصر بطل للنمو الصحيح والتقدم والتطور. ومثل هذا البطل لا ينتمي الى الماضي ولو بعد الف جيل . ان تاريخ البشرية كلها هو تاريخ تقدمها وتطورها ونموها وتحررها . وبطل التقدم والتطور والحرية في اي عصر وفي كل وطن انما ينتمي الى تلك القيم الباقية التي تسعى اليها البشرية ابدا وتكافح من اجل اكتمالها وتوسيعها الى آفاق لا تحد . هذا البطل الذي يكافح على رأس شعبه من اجل الطعام لكل جائع والعمل لكل عاطل والمعرفة لكل جاهل والحرية لكل مستعبد ، ومن اجل ان يصبح ضمير الانسان ملكا له وحده ويصبح عمله حقا له وحقا للاخرين ، وحريته التزاما عليه وواجبا على الاخرين صيانته وحمايته : هذا البطل لا ينتهي وجوده عندما يموت . فالبشرية لا تكف عن حلمها ولا عن كفاحها من اجل الحرية والمعرفة والطعام والعمل والاخاء والمساواة . لا تكف البشرية عن الدفاع عن تلك القيم التي كان البطل هو خلاصتها ورمزها وصائغ الملامح المحددة لها في عصره ووطنه .

اننا نعرف جميعا تلك الاحداث السياسية الكبرى التي شارك عبد الناصر في قيامها او قام بها وحده او كان رائد قيامها . نعرف انهاء الملكيه المتمصرة عميلة الاستعمار ورأس حربة الاقطاع الزراعي ، ونعرف اعلان الجمهورية ، وتصفية الاقطاع الزراعي . نعرف تحقيق الاستقلال ومحاربة الفساد وبناء الجيش الوطني القوي. نعرف تأميم القناة وتصفية الوجود الاقتصادي الاستعماري في مصر وبناء مئات المصانع والمدارس والمستشفيات . نعرف تأسيس حقوق المواطن الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ازاء الدولة وبداية التخطيط الاقتصادي وبداية تصفية الرأسمالية المستغلة المحلية ودفع اقدامنا الى طريق الاشتراكية . نعرف اكتشاف عروبة مصر وتأكيد شخصيتها القومية وانتماءها العربي . نعرف تأكيد الارتباط الذي لا ينفصم بين القضية الوطنية المصرية ومعارك التحرر العربي الوطني . نعرف وقوفنا الى جانب كل قوى التحرر والسلم والعدل في هذا العالم . نعرف مؤتمر باندونج وبلغراد والقاهرة . نعرف كيف تأكدت وحدة الثورة التحررية العربية من خلال معارك استقلال السودان والجزائر واليمن وليبيا ومعارك حلف بغداد والحلف الاسلامي . نعرف كيف اندثر من وطننا العربي وجود الاستعمار البريطاني باستثناء جيوب لا بد من تصفيتها . نعرف وقوفنا الصامد في وجه العنصرية والصهيونية والاستعمار الامريكي .

لكن هذا كله لا يقف عند حدود المعاني الجزئية التي يعنيها كل حدث من هذه الاحداث او كل موقف من هذه المواقف . لقد ارتبطت كلها بثورة عبد الناصر وبقيادة عبد الناصر لهذه الثورة .

لاول مرة اصبحت مصر املا بعد ان كانت قضية. كان آباؤنا يفكرون في القضية المصرية ، ونفكر نحن في شخصية مصر ودورها وقدرها . كانت القضية تطرح في لندن او في الامم المتحدة . اما مصر فقد اصبحت جزءا من وطن وامتدادا لحضارة لا يمكن ان يتجاهلهما احد سواء نظر الى التاريخ او تأمل الحاضر او امعن النظر في المستقبل . اصبحت مصر وجودا مؤثرا بشرايين القوة العربية التي تدعمها وتستمد منها القوة في وقت واحد. انتهى من الوجود تماما عصر المتمصرين واستامبول وأبناء الجواري . وخرجت مصر من تحت الرمال وأطلال التاريخ حاملة وجهها الحقيقي العربي العريق وكلمتها وذراعها القوية . كانت حكمتنا تختزن وخبرتنا تتراكم واحزاننا تمتد وحبال الآمال تطول . كنا نصوغ البطل وراء البطل، مجهولين لم تعرفهم أسفار المؤرخين ومعروفين يجهلهم الاكثرون . من حصن الدين الى همام الكبير . ومن عمر مكرم الى الحجاج الخضري الى مصطفى البشتيلي الى ياسر المنياوي وسليمان الحلبي . ومن عرابي الى النديم الى محمد عبيد . في صحراء الصعيد وقرى الدلتا

وحواري القاهرة . وكان عبد الناصر هو اخر بطل صاغه شعبنا ومنحه خبرته وحكمته وبثه احزانه وآماله: الصبر الشجاع والجسارة الملهمة ، العمل للعاطلين والطعام للجائعين والمعرفة للجاهلين والحرية للانسان والكرامة للجميع . الارض للفلاح والمصنع للعامل والسلم والاخاء للبشرية . الزمن الممتد والسكينة تشمل الوادي والهدوء يغمر الصحراء والنهر وادع مستكين والاعماق تضطرم. الخصوبة في الماء والرزق في الارض والحق في الذراع والحلم في العيون ، وفي القلوب آمال كبار . الله في السماء وفي القلوب ، والانسان في الدنيا والآخرة ولا يبقى منه وله غير العمل الصالح والذرية المباركة والذكرى الطيبة على لسان الابرار . من ولد سوف يموت ومن مات لا يفنى ابدا والجزاء دائما من جنس العمل .

كانت هذه هي حكمة مصر وخبرتها واحلامها التي اودعتها عقل عبد الناصر وقلبه والتي امتزجت داخله بفكره هو ورؤيته . وحينما يحدث هذا الامتزاج بين الشعب وبين بطله يصبح البطل بطلا للتقدم والحرية والعدل . ذلك ان الشعب لا يحلم بغير الحرية ولا يكافح الا من اجل التقدم ولا يصنع بعمله غير الحياة . يصبح البطل هو روح شعبه ويصبح رمز نضاله من اجل المستقبل . ومثل هذا البطل لا يموت ، لان احلام الشعب لا تموت وخبرته لا تندثر ونضاله لا يتوقف . البطل يضيف الى الحلم حقيقة مجسدة ، ويضيف الى الخبرة فكرا متوهجا ويضيف الى النضال هدفا محددا. وعندما تنتهي حياته في هذه الدنيا ، يضيف الى احزاننا المؤقتة حزنا مقيما ، ويترك لنا الحقيقة والفكر والهدف . يترك لنا وجوده الحقيقي الباقي ، لأن الشعب هو هذا الوجود.

ولكن وجود البطل الثوري لا يقتصر على هذا الجانب الوجداني من جوانب وجود الانسان . لوجود البطل الثوري ابعاد انسانية شاملة لانه لا بد ان يكون انسانا شاملا . لقد كان عبد الناصر بطلا لانه قاد ثورة وطنه من اجل التقدم ، والحرية ، وأرسى دعائم لهذه الثورة يمكن ان تستمر منهجا ودليلا للعمل الثوري في هذا الوطن لمرحلة تاريخية كاملة . مرحلة نقل مصر والوطن العربي كله من القرون الوسطى الى القرن الواحد والعشرين بالطريقة الوحيدة الممكنة : الثورة الاشتراكية والوحدة القومية عن طريق التحرر من الاستعمار والتخلف .

ان الثورة هي علم تغيير المجتمع . وتغيير المجتمع يبدأ من تغيير اساسه المادي . ولكن التغيير كله ، وتغيير الاساس المادي ذاته لا يمكن ان تكون له قيمة الا اذا استطاعت عقلية الشعب السائدة ان تتمرد على القيود التي يفرضها المجتمع القديم ، وان تفقد خضوعها التقليدي واحترامها المستكين لتلك القيود . وقد كان خروج جمال عبدالناصر على رأس الجيش المصري في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لتحطيم البناء السياسي للمجتمع القديم هو الذي فتح الباب على مصراعيه امام جماهير الشعب لكي تتمرد على خضوعها القديم الموروث لقيود العالم القديم ، وكان خروج عبد الناصر ونجاحه في تحطيم هذا البناء السياسي المتهالك الثقيل الوطأة هو التتويج الواقعي لجهود مئات الثوريين المصريين على مدى ستة اجيال متتالية من اجل تحطيم عقلية الاستسلام والخضوع والاستكانة القديمة . ان نقد العقلية المتخلفة القديمة وهدمها هو الثمرة الفكرية الواقعيه الاولى لثورة عبد الناصر ضد الملكية المتمصرة الفاسدة وضد الاستغلال الاقطاعي والرأسمالي ، وضد التخلف الاقتصادي وضد الفكر الغيبي وتحقير المرأةوازدراء حياة الانسان والسخرية من الثقافة والعلم والنظر بعجز المستكين وانبهار الساذج الى تفوق الغرب المادي وهيمنته على اسرار العلم واستمتاعه بثمرات التقدم الاقتصادي القائم على الاستغلال .

وقد جاءت ثورة عبد الناصر لكي تتوج بالانتصار العمليجهود اجيال عديدة من الثوريينالأصلاء والوطنيين المخلصين ، كان الاشتراكيون القدامى في بلادنا يجاهدون من اجل نشر المفهوم العلمي الصحيح للوطنية والنزعة القومية . ولكن ضعف اصواتهم ومطاردة السلطات الرجعية لهم وقوة اجهزة الدعاية والاعلام التي تستخدمها الطبقات المتخلفة ، كل هذه العوامل هي التي ساعدتعلى نشر مفاهيم عاطفية وغيبية ساذجة عن الوطنية وعن الوطن . كما ان غيبة القيادة الوطنية المؤثرة ، وعجز هؤلاء الاشتراكيين عن تبين الابعاد القومية الصحيحة لمعركتنا الوطنية وترابط اجنحة الثورة العربية الوطنية في الاقطار العربية المختلفة هو الذي منع هؤلاء الاشتراكيين من اكتشاف ارتباط الثورة التحررية الوطنية في مصر ارتباطا قوميا ومصيريا بالثوراتالوطنية في الاقطار العربية الاخرى ، ومنعهم في الوقت نفسه من اكتشاف المغزى الثوري العميق للوحدة العربية وللوحدة القومية للشعب العربي في اجزائه المختلفة .

وقد جاءت ثورة عبد الناصر لكي تزيح بضربةواحدة المعوقات العملية التي تمنع الثورة الوطنية في مصر من الارتباط بالثورات الوطنية في اقطار الوطن العربي ، والمعوقات السياسية التي تمنع ترابط اجنحة الثورة الوطنية العربية في الاقطار العربية المختلفة ، والمعوقات الفكرية التي تمنع من اكتشاف البعد الثوري والتقدمي للقومية العربية ذاتها باعتبارها وجودا تاريخيا وحضاريا يكتسب تأثيره وكيانه من خلال وحدته النضالية في معركته ضد التجزئة والاستعمار والتخلف والطبقات المستغلة في وقت واحد . كان صراع ثورة جمال عبد الناصر في المجال القومي صراعا من اجل اعادة اكتشاف الشعب العربي كله لذاته ولوضعه التاريخي والحضاري والنفسي ، ولدوره التقدمي في دفع حركة التحرر الانسانية الشاملة الى الامام على اساس انساني وعلمي وديموقراطي واشتراكي. ولهذا كان صراع ثورة جمال عبد الناصر في المجال القومي هو اكثر صراعات هذه الثورة تأثيرا على مسارها التاريخي وعلى جماهيرها في مصر وفي الوطن العربي كله ، خاصة لارتباط الصراع القومي بالمعركة من اجل التحرر الوطني العربي الشامل ومن اجل دفع الوطن العربي كله على طريق التقدم بالاشتراكية .

القاهرة — **سامي خشبة**